

عالم جديد مزاجه الحرب

الكاتب



جميل مطر

علمتني سنوات الممارسة الدبلوماسية والأكاديمية والإعلامية درساً له قيمته المعتبرة. علمتني أن للسياسة دورات كدورات الاقتصاد. علمتني أيضاً أن للدول أمزجة كأمزجة البشر متقلبة ومتراوحة. ذهب بنا الظن أحياناً إلى الاعتقاد بأن الحروب من صنع سياسيين ورجال أعمال وقادة عسكريين، أما الشعوب فقد اعتقدنا أنها في غالبيتها ركنت منذ بدء الخليقة إلى السلم وأنها تكره الحرب ولا تذهب إليها إلا تحت إحياءات أو ضغوط ذوي المصلحة في الدولة. تأثرنا بفكر وعقيدة أيديولوجيات بعينها حين التزمنا في تحليلاتنا وتقاريرنا الاعتقاد في سلمية الشعوب. كثيراً ما تجاهلنا احتمال أن تكون للشعوب أمزجة كأمزجة الأفراد تتغير مع الوقت وضغوط الظروف، تتغير مع الحاجة إن مست نمط حياتها. تتغير مع تراكم الإحباط وانحساره ومع تراجع الأمل وعودته. تتغير بطول وشدة ضغوط الإحياء والمراوغة من جانب صناع السياسة والقرار وأصحاب المصالح الاقتصادية وبخاصة صناعة السلاح ومن جانب قادة الطبقة الدينية. نشأنا سياسياً على فكرة أن في العالم شعباً اقتنعت بالسلم أسلوب حياة وتعامل مع الدول الأخرى. عشنا عقوداً تحت الظن بأن اليابانيين والألمان تحديداً تخلّوا نهائياً عن اعتناق الحرب وسيلة للنهوض والصعود. كثيرون بيننا اختلطوا بأفراد من الشعبين أو عاشوا معهم في مجتمعاتهم وعادوا باقتناع أن هذه الشعوب بطول ممارسة السلم والتعمق في اعتناقه فقدت نهائياً مزاج الحرب تحت أي ظرف أو اعتبار. أنا شخصياً قابلت مفكرين وعلماء وشخصيات من مهن متنوعة من بنات وأبناء هذين الشعبين ورثوا الشعور بالخزي والعار لأن أجدادهم شنّوا حروباً أو اشتركوا فيها وضحوّوا بحياتهم دفاعاً عن عقائد تحبذ العنف اعتنقها وبشّر بها زعماء سياسيون. .

لا جدال في أن الكثير في أحوال الدول قد تغير خلال السنوات الأخيرة. تغيرت الأوزان النسبية في علاقات الدول ببعضها. تغيرت، ولعله التغير الأهم، رؤية الدول الكبرى لذواتها. بدأنا نسمع رئيساً بعد رئيس لأمریکا، الدولة الأعظم والأقوى، يفصح عن انحدارها ويصرّ على ضرورة عمل المستحيل لتعود إلى عظمتها. كان لا بد أن يسبق هذا المستحيل إجراءات منها تحشيد مؤيدين وتعبئة وتخصيص موارد وإنعاش اليمين المتطرف، ومنها إعداد الساحة الدولية لحالة هي

الأقرب إلى وضع التعبئة لأغراض حرب. ولكل هذا تأثيره النفسي المباشر على الحالة النفسية للشعب الأمريكي وشعوب دول أخرى حليفة لأمريكا أو معتمدة عليها في مسائل حيوية كالأمن والاقتصاد. على سبيل المثال وليس الحصر كان للعقوبات التي فرضتها واشنطن على الاتحاد الروسي والمتعاملين معه آثارها المباشرة والعاجلة على نفسية شعوب أوروبا.

لم يعد مهماً أو ضرورياً البحث والإعلان عن الدولة المسؤولة عن نشوب هذه الحرب رغم ما تسببت في حدوثه على جميع الأصعدة. يهمننا بمناسبة موضوع هذا المقال الإشارة إلى أنه من بين ما تسببت في حدوثه هذه الحرب تطورات كان لها أبعاد الأثر في الحالة الثورية، ولا أقول الفوضوية، التي يئن تحتها النظام الدولي الراهن. من هذه الآثار حسب ما أرى:

* أولاً: اكتشفت دول في أوروبا أن الاعتماد في أمنها على أمريكا لم يعد سياسة مقبولة ولا يمكن الاستمرار في تبنيها. فبالنظر إلى ضخامة الخسائر التي ترتبت على قرار أمريكا مواجهة روسيا بمد أوكرانيا بالسلح المخزون في أوروبا وبالأموال الوفيرة وبالعقوبات الاقتصادية وعلى رأسها الطاقة، ثبت بالدليل القاطع أن أمريكا لم تتشاور مسبقاً وبالشكل الكافي مع حلفائها ولم تأخذ بمشورتهم وأهملت مصالحهم، فكانت النتيجة أزمة مستحكمة كشفت لروسيا والصين أيضاً عن مدى ضعف أوروبا استراتيجياً في أي مواجهة أو أزمة في المستقبل القريب.

* ثانياً: ارتبكت أمريكا؛ نراها تلجأ بخطوات غير واثقة لفرنزويلا عدوها اللدود في أمريكا الجنوبية لتستعيد تشغيل آبار نفطها وتوزيعه. ومع ارتباك أمريكا تمادت دول في أمريكا الجنوبية وخارجها، كالحادث في الشرق الأوسط، في إعادة النظر في سياساتها النفطية والخارجية وبخاصة علاقاتها بالولايات المتحدة.

* ثالثاً: تسببت ضخامة العقوبات في إثارة مشاعر أوروبية كان الظن أنها هدأت بعد طول اطمئنان خلال الحرب الباردة. فإلى جانب عودة الرغبة في صفوف الشعب الألماني إلى الحاجة إلى برنامج تسليح ألماني يتناسب مع قدراتها الاقتصادية وظروفها الأوروبية صرنا نسمع اقتراحات ألمانية لقيادة برنامج للأمن الأوروبي مستقل الإرادة والتوجيه.

* رابعاً: تصادف، وفي رأيي هناك ما هو أكثر من الصدف، تصادف أن اليمين، وبعضه متطرف، صار تياراً جارفاً بعد أن كان لا يزيد على الاستثناء الذي يمكن تحمله واستيعابه. لا أستبعد شخصياً أن أمريكا بمساعدة حلفاء في أوروبا استخدمت تنظيمات وشخصيات يمينية متطرفة أثناء فترة تدريب جيش أوكرانيا وقياداته السياسية في العقد الماضي استعداداً لمواجهة مؤكدة مع الجارة الكبيرة.

لسنا بعيدين عن آثار تقدم هذا الزحف اليميني وبخاصة بعد أن وصل إلى إسرائيل. أعتقد أنه سوف يبحث عن خصوم وحلفاء في العالم العربي. أعتقد أيضاً أنه، إذا احتاج، سوف يجد دعماً قوياً وحماية أكيدة من يمين أوروبا الراهن. ويمين أمريكا المتفاهم والقادم للحكم في غالب الاحتمالات.